

ترجمة للشيخ

رحمه الله

في محاضرة أقيمت

موسم ثقافات الجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

ألقاها وأعدّها تلميذه

عظيمة محمد سالم

مع صاحب الفضيلة

والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطى

رحمه الله

بقلم : الشيخ عطيه محمد سالم

القاضى بالمحكمة الشرعية بالمدينة

الحمد لله المستحق لصفات الجلال وكمال الأسماء ، المتفرد بالدوام
وبالبقاء . خلق الخلق من عدم وقضى عليهم بالموت والفناء . وجعل
الدنيا مزرعة الآخرة ، حصاها الثواب والجزاء ، واختار من عباده
رسلا يبلغون عنه ، فهم بينه وبين خلقه وسطاء ، واصطفى خاتمهم محمداً
صلى الله عليه وسلم فهو صفوة الأصفياء ، بعثه رحمة للعالمين ، نجاء
بالحنيفية السمحاء ، أطل فجرها بمكة من قمة حراء .

وأشرقت شمس نهارها بطيبة الفيحاء . ظلت مهاجر صحبه فى ألفه
ووفاء ، فتحمل الصعب الكرام ترائه . ماورثوه منه هداية وضياء .
وورثوه من بعدهم توريث الآباء للأبناء . وغدت المدينة مشرقة
أنوارها يشع منها للعالم نور وسناء وتوالت الأجيال تلو أجيال

إنتاجها للعالم صفوة العلماء ممن قاموا لله حقاً ، وأخلصوا لله صدقاً ،
ونشروا العلم في عفة وإباء ، نهلوا من المنهل الصافي من منبعه قبل أن
يخالطه التراب أو تكدره الدلاء ، في مهبط الوحي محط رحالهم ، وفي
الروضة غدوم ورواحهم في غبطة وهناء .

درسوا كتاب الله حكماً وحكمة ، حتى غدت آياته لمرضى
الصدور شفاء ، وتكشفت حجب المعاني فانبجست من تحتها أشمس
وضياء .

وترسموا سنن النبي محمد ، وكذاك سنة الخلفاء ، وكذا الصحابة
والتابعون فإنهم لهم بهم أسوة واقتداء ، فهم النجوم في ليل السرى ، وهم
الهداة لطالب الهدى وأدلاء ، وهم الأئمة قدوة الأمة وعلى الدين أمناء ..
ونحن بالمدينة وفي هذا الجوار الكريم أشد إحساساً بمكانة
العلم ومنزلة العلماء ، وأسرع فرحاً بهم وأشد حزناً على موتهم ، وألماً
لفراقهم ، إن في موت العلماء لغربة للغرباء .

ولاشك أن هذه الآلام تزداد ، وهذا الحزن يشتد أكثر
وأكثر حينما نكون قد عرفنا هذا العالم أو عاصرناه ، ولمسنا فضله
واستفدنا علمه .

وهذا التقدر كنا فيه سواء نحو علماء المسلمين عامة ، وشيخنا
الأمين خاصة .

وإني كأحد أبنائه ومن جملة تلاميذه أقف اليوم معزياً متعزياً ،
ومترجماً مترجماً ، وقد عظم المصاب وعز فيه العزاء ، وأقول ما قد قلته
على البديهة ، عندما سألتني سائل من هذا نعزيه في الشيخ ، فقلت هذه
الآيات :

أقول للسائل لما سأل	من ذا نعزي فيما نزل
كل من لا قيت فعزه	وابداً بنفسك في الأول
عز الجميع بموته	واعلمه أن الخطب جل
موت العالم رزه العالم	في موته يأتى الخلل
لونزل الرزه بقمة	فوق الجبال لهد الجبل
خير التعازى فى أننا	رد إلى الله عز وجل

ولو استحق أحد التعزية لشخصه لاستحقها ثلاثة أشخاص :

الشيخ عبد العزيز بن باز لزمالاته ٢١ سنة وماله عنده من منزلة ،
والشيخ عبد العزيز بن صالح أول من عرفه وتسبب في جلوسه ،
وصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد الرحمن لمحبتة وتقديره .

نعم أقف معزيًا متعزياً مترجماً مترجماً كما قال القاضي عياض عن
بعض مشايخه « ما لكم تأخذون العلم عنا وتستفيدون منا ، ثم تذكرونا
فلا تترحمون علينا » إنه ربط أصيل بين العلم والعالم ، وتنبيه أكيد
على أن الاعتراف بفضل العالم شكر وتقدير لنفس العلم .

رحم الله شيخنا رحمة واسعة ، ورحم الله علماء المسلمين في كل
زمان ومكان .

وقد قام الخلف بحق السلف في حفظ تاريخهم بالترجمة لهم خدمة
لتراثهم وإحياء لذكورهم وما أثر عن السخاوي أنه قال : « من ورخ
مؤمنًا فكأنما أحياه » . أى من ترجم له وأرخه . وهام علماء الأمة
يعايشون كل جيل بسيرتهم وتاريخهم في أمهات الكتب .

وإني لأعتقد حقاً أن تراجم الرجال مدارس الأجيال ، أى في
علومهم ومعالم حياتهم .

وإن مثل شيخنا الأمين رحمه الله لحقيق بترجمته والاستفادة
من منهج حياته في تعلمه وتعليمه .

وإني لأستعين الله فيما أقدم وأستلهمه فيما أقول :

إلى رحمة الله وحسن جواره

فقيد العلم يا علم الرجال ، نعاك العلم في حلق السؤال . نعم فقيد
الدرس يا علم الرجال ، نعاك الدرس في فصل المقال .

انتقل إلى رحمة الله وحسن جواره صاحب الفضيلة وعلم الأعلام
الشيخ الجليل الإمام المهام ، زكى النفس ، رفيع المقام ، كريم السجايا ،
ذو الخلق الرزين ، عف المقال ، حميد الخصال ، التقى الأمين ، والدنا
الشيخ محمد الأمين الشنقيطى . توفى ضحى يوم الخميس ١٧/١٢/١٤١٣ هـ
وكانت وفاته بركة المسكرة مرجعه من الحج ، ودفن بمقبرة الملا
وصلى عليه سماحة رئيس الجامعة الإسلامية فضيلة الشيخ عبد العزيز
ابن عبد الله بن باز فى الحرم المكى ، مع من حضر من المسلمين بعد
صلاة الظهر من ذلك اليوم .

وفى ليلة الأحد ٢٠/١٢ أقيمت عليه صلاة الغائب بالمسجد النبوى
وصلى عليه صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح آل صالح
إمام وخطيب المسجد النبوى ورئيس الدائرة الشرعية بالمدينة ،
ومحاکم منطقة المدينة بعد صلاة العشاء مباشرة ، وصلّى عليه من
حضر من الحجاج ما لا يحصى عدداً .

ومن غريب الصدف وحسن التفاضل أن يقرأ الإمام في صلاة العشاء قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يفتنون عنها حولا) إلى آخر السورة .

وفي الركعة الثانية : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) .

وقد سألت فضيلته عن هذه القراءة أهو قاصد لهذه الآيات ومختار لها ، أم جاءت عفواً ؟ فقال حفظه الله : بل عفواً فما ملاحظة عليها ؟ . قلت : إنها من أغرب الصدف ، لأنك صليت على الشيخ الأمين رحمه الله بعدها ، فظننت أنك قصدت إليها . ولكنه من المناسبات الحسنة ، تغمده الله الفقيد برحمته وأسكنه فسيح جنته إنه جواد كريم رؤوف رحيم ، كما صلى عليه بالجامعة الإسلامية وفي مساجد الدوادي .

مات رحمه الله تعالى بعد أن أحيى علوماً درست ، وخلف تراثاً باقياً ، وربّي أفواجاً متلاحقة تعد بالآلاف من خريجي كليات ومعاهد الإدارة العامة بالرياض ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

مامات إلا بعد أن أصبح له في كل دائرة من دوائر الحكومة في

أنحاء البلاد إبناً من أبنائه ، وفي كل قطر إسلامي بعثة من البعثات الإسلامية لمنح الجامعة التعليمية بالمدينة المنورة .

ما مات إلا بعد أن ترك في كل مكتبة وفي كل منزل (أضواء البيان) تبديد الظلام وتهدى السبيل .

فلابعد ولا يغالى من يقول : ما مات من خلف هذا التراث ، وأدى تلك الرسالة في حياته ، يبقى أثره خالداً على مر الأجيال والقرون .

لقد أدى رسالة عظمى . وانتقل إلى الرفيق الأعلى . ليحصد مازرع ويحني ثمار ماغرس ، وينعم بما قدم رحمه الله رحمة واسعة .

لقد عاش رحمه الله في هذه البلاد منذ سنين حين قدم لأداء فريضة الحج ، ثم اعتزم المقام وعمل في كبريات معاهد العلم وجامعاته ، وألف وحاضر ، ولم تُكتب عنه كلمة ولم يكن يرضى بالكتابة عنه . لقد كانت أعماله تترجم عنه ومؤلفاته تعرف به حتى عرفه الصغير والكبير والقاصي والداني ، والعالم والعامي ، فلم تكن وفاته رزاً أعلى فرد أو أسرة أو جماعة أو قطر ، ولكن على العالم الإسلامي كله .

وما كتبت عنه سوى كلمة موجزة استقيتها منه رحمه الله عند طبع أول محاضرة له بالجامعة الإسلامية في آيات الصفات وطبعت في مقدمتها .

ومات رحمه الله ولم تكتب عنه أيضاً إلا تعريف موجز بالنشأة والمولد وما إلى ذلك .

والآن وقد تحتمت الكتابة عنه لا تعريفاً به ، فهو أعرف من أن يُعرف ، فهو العلم الخفاق ، والطود الأشم ، والشمس المشرقة . فليست الكتابة للتعريف ، ولكن لرسم خطاه وبيان منهجه مما سمعت منه رحمه الله ولمسته من حياتي معه المدة الطويلة . وإني لأسجل هذا عنه رحمه الله للقريب والبعيد ، لسكل من عرفه عالماً ولم يعرفه طالباً أو عرفه هنا ولم يعرفه هناك في بلاده ، فأقول أولاً : إني لا أستطيع إيفاء المقام حقه لعظم مقامه رحمه الله وكبير منزلته ، وإن كل كتابة عن أي شخص تعتبر ذات جانبيين :

جانب ترجمة له وبيان لحقيقته وتعريف بشخصه ومنزلته ، وجانب سيرته ومنهجه . بما يمكن أن يكون نهجاً يُسار عليه ومنهجاً يُقتدى به ومؤثر يؤثر على غيره ممن أراد السير في سبيله والنسج على منواله ، والاستفادة من أقواله وأفعاله .

والكتابة عن أي شخص من هذين الجانبين تعتبر بمثابة شخصيته في إبراز صورته وبيان مكائده وفيها تقيمه في عظمته أو توسطه أو

غير ذلك ، وأى عالم أو عالم علم فإن له شخصية مزدوجة ، فى حياته العامة وسلوكه العام . وحياته الخاصة فى طلب العلم ، ومنهجه فى تحصيله ونشره ، والكتابة بهذا الاعتبار تكون عن الترجمة الشخصية ، والسيرة العلمية .

وقد ملئت المكتبات الإسلامية بتراجم وسير الأعلام من الرجال من عصر الصحابة رضى الله عنهم إلى عصور التدوين ، وامتدت إلى اليوم حفظاً للتراث الإسلامى ، وتسجيل للرعى الأول . ولم تكن الكتابة عن أى شخص وافية كاملة إلا بتعدد الكتاب عنه وتستخلص الحقيقة من مجموع ما كتب عنه ، لأن كل كاتب عن أى شخص لن يخلو من أحد أمور ثلاثة :

- ١ - إمام موال متأثر : فقد يقع تحت تأثير العاطفة ، فينظر من زاوية واحدة . فيقال فيه « وعين الرضا عن كل عيب كيلة »
- ٢ - وإمام عادٍ منفعل : فيقع تحت طائلة الانفعال فيصدق عليه تمة البيت السابق « كما أن عين السخط تبدى المساويا » .

- ٣ - وإمام بعيد معتدل : يرغب التقييم بعيزان الاعتدال ومثل هذا قد يفوته ما لم يكن حريصاً عليه . بدون تقصير .

ومن هنا لم تكن كتابة كاتب عن إنسان ما مطابقة كل التطابق
ومكتملة غاية الاكتمال .

وقد يتعرج الأصدقاء مخافة التهمة والتأثر بالآلفة أو يتوقف
الأعداء مكتفين بالإغضاء ، أو يتردد الآخرون خشية التقصير . ولهذا
فقد تذهب الشخصية الفذة دون كتابة عنها فيفتقده الحاضرون
ويفقد سيرته القادمون . علماً بأن سيرة الرجال مدرسة الأجيال .

وفضيلة الوالد الشيخ محمد الأمين رحمه الله له شخصية متميزة
وسيرة واضحة يعرفها كل من لقيه أو حضر مجلسه أو استمع درسه أو
قرأ كتبه أو حتى سمع عنه . وقد طبقت شهرته الآفاق .

وإن الكتابة عن مثله رحمه الله لمن أشق ما يكون لتعدد جوانبه
الشخصية وانفساح مجالاته العلمية والحال أنه لا مرجع لمن يكتب
عنه إلا الخلطة وطول المشرة وتصيد الأخبار من ذويه الأخيار .

وحيث إن أحق الناس بالكتابة عنه هم تلامذته وأبنائه ، وإنى
وإن كنت قد أكرمنى الله بصحبته وطول ملازمته ليل نهار وكثرة
مرافقته فى الظمن والأسفار . داخل وخارج المملكة . وسمعت منه
رحمه الله الشئ الكثير والكثير جداً ، فإنى لأجدنى تتجاذبنى

عوامل الإقدام والإحجام . فإذا استحضرت كل ماسمعه منه ،
وتصورت كل ملمسته فيه أجدنى أحق الناس بالكتابة عنه .

وإذا تذكرت مكاتبه وترامت لى منزلته وأحسست تأثيره على
نفسى تلاشت من ذهنى كل معانى الكتابة أمام تلك الشخصية المثالية
وتراجعت بعيداً عن ميادين الكتابة عنه .

ولكن إذا كان كل كاتب لا يستطيع تقييم كل شخصية تقيماً
حقيقياً يدل على الشخص دلالة مطابقة ، وفى أسلوب المساواة .
لا موجزاً ولا مطناً . إذا كان هذا حال كل كاتب مع كل شخص .

وإذا كان تلميذ الشيخ أحق بالكتابة عنه فالى لا أدلى بدلوى
بالدلاء ، وأعمل قلمى مع الأقلام ، وأبدى ما عندى سواء ماسمعه منه
مباشرة أو عنه بواسطة ، أو لمسته من جوانب حياته وسيرته .

دون انطلاق مع العاطفة إلى حد الإطناب ، ودون إحجام مع
الوجل والتهيب والوجل إلى حد الإيجاز . إنه لشيخى ، وأعز علىّ
من والدى .

إنه حقاً والدى حساً ومعنى ، لقد عشت فى كنفه سنوات معه
فى بيته ، وقد يظننا سقف واحد فى غرفة واحدة أمداً طويلاً .

وقد وجدت منه رحمه الله العناية والرعاية كأحد أبنائه كأشد ما يرعى الوالد ولده ، وقد أجد منه الإيثار على نفسه في كثير من أحيانه ، مما يطول ذكره ، ولا يُنسى فضله .

وأعز من الإيثار ما منحني من العلوم والآثار ، والتوجيه الأدبي ، والفضل الخلقى ، والسمو النفسى ، فى مجالسه وأحاديثه ، ودروسه من غير ما حد ويدون تقيد بوقت ، إذ كان رحمه الله كل مجالسه مجالس علم ، وكل أحاديثه أحاديث أدب وتوجيه ، ولم يكن يحتاج إلى تحضير لدرس ، ولا مراجعة لجواب على سؤال .

ولم يكن لى معه رحمه الله من وقت معين مع كثرة الإخوان الدارسين عليه المقيمين معه فى بيته إلا وقت واحد هو ما بين المغرب والعشاء لمدة سنتين دراستين ونحن بالرياض . قرأت فى خلالهما تفسير سورة البقرة .

كانت تلك الدراسة عليه رحمه الله هى رأس مالى فى جلّ تحصيلى ، وعليها أساس دراستى الحقيقية سواء فى المقررات أو غيرها . لأن فيها جميع أبواب الفقه . وعلى مباحثها تنطبق جل قواعد الأصول . ولا يبعد من يقول إن ما بعدها من السور يُعتبر تفسيراً لها ، أو أن

من أتقن تفسيرها سهل عليه تفسير ما بعدها . وقد كانت دراستها سببا في تأليف كتابي دفع إيهام الاضطراب . وأضواء البيان . وكل منهما إثر سؤال وجواب .

مع ما درست من الأصول ومبادئ في المنطق ودقائق في البلاغة وغير ذلك .

أقد وجدت منه رحمه الله ما لم أجده من غيره على الإطلاق ، كما وأظن أن أحدا لم يجد منه ما وجدته أنا منه . قلن شرفت بخدمته فلقد حظيت بصحبته . فجزاه الله عنى أحسن الجزاء .

وإن صاحب مثل هذه العلاقة مع مثل هذه الشخصية ليحس بثقل ديونه على كاهله ، ويلمس عظم المنة تطوق عنه . فهل أستطيع توفية هذا الجانب ، فحسب فضلا عن الجوانب العامة التي هي موضوع الترجمة والسيرة ، وهل يتأتى مني الإحجام عن الكتابة وأنا مدين بمثل تلك الديون ، مكبل بتلك المنن مما يجعلني أحق بقول القائل :

كلينى لهم يا أميمة فاصب

وليل أفاقيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب
على لعمر نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب
ولئن قيل :

رنجلى للشامتين أريهمو
أنى لرب الدهر لا أتضعع

فإنى لأقول :

وتجلى للسامعين أريهمو شمس الحقيقة من سناه تطلع
وإنى ملزم بالكتابة ولو تأثرت بالعاطفة فإنى معذور :

وإن قصرت عن حقه فلا عذر لى فى التقصير .

وإنى لأعتبر ما أقدمه بداية لا نهاية وتذكرة للآخرين من
حاضرين وغائبين، لعلهم يتمون ما بقى ، ويكملون ما نقص .

وإذا كانت التراجم والسير تنقسم إلى ذاتية وغير ذاتية .
والذاتية هى ما يكتبها الشخص عن نفسه من طفولته إلى رجولته .

ويسجل ما جرى له وعليه . وهى أصدق ما تكون إن كان صاحبها معتدلاً أميناً .

وقد ترجم بعض العلماء والفلاسفة لأنفسهم منهم :

١ - ابن سينا المتوفى سنة ٢٨٠ ؛ كانت ترجمته لنفسه مرجعاً لكل من كتب عنه من تلاميذه .

٢ - والعماد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ فى مقدمة كتابه « البرق الشامى » .

٣ - وابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ .

٤ - وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٥ ، والسيوطى وغيرهم .

والترجمة غير الذاتية ما يكتب غيره عنه

وإن ما أقدمه فى هذا المجال ليجمع بين القسمين الذاتى ، وغير الذاتى ، لأنه يشتمل على ما قاله هو عن نفسه وسمعته منه مباشرة . كما تشتمل على ما عرفته ولمسته من حياته مدة صحبتي له .

والله أسأل أن يجعل من سيرته خير قدوة لتلاميذه ، وأن يجعل فى ولديه خير خلف لخير سلف . وأن يأجرنا فى مصيبتنا ويخلفنا خيراً منها ، ونسأله تعالى أن يتغمده بوافر رحمته ويسكنه فسيح جنته وأن (٢ - ترجمة الشيخ)

يجزل له العطاء ويجزيه أحسن الجزاء عما بذله من جهد ، وخلفه من علم . إنه جواد كريم (إن أول ما يبدأ به في مثل هذا المقام هو الاسم واللقب والنسب والنشأة والموطن) .. الخ .

وهذه ترجمته رحمه الله كما سمعتها منه مباشرة :

الاسم : هو محمد الأمين وهو علم مركب من اسمين ، وذكر محمد تبرك .

واللقب : آبا . بعد الهمزة وتشديد الباء من الإباء .

واسم أبيه : محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار من أولاد أولاد الطالب أوبك وهذا من أولاد أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكنا الأبر ، جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالمكنين . ويعرفون بتجكانات .

نسب القبيلة : ويرجع نسب هذه القبيلة إلى حمير . كما قال الشاعر

الموريتاني محمد فال ولد العينين مستدلا بفصاحتهم على عروبتهم :

إنابنوحسن دلت فصاحتنا أنا إلى العرب الأفطاح ننتسب

إن لم تقم يينات أننا عرب ففي « اللسان » بيان أننا عرب

أنظر إلى مالنا من كل قافية لها تدم شذور الزبرج القشب

ويتن شاعر آخر مرجع تلك القبيلة إلى حمير بقوله :

يا قاتلاً طاعناً في أننا عرب قد كذبتك لنا لسن وألوان

وسم العروبة بادٍ في شمائلنا وفي أوائلنا عز وإيمان

أساد حمير والأبطال من مضر خمر السيوف فاذلوا ولا هانوا

لقد كانت خصائص العروبة ومميزاتها موفورة لدى الشيخ رحمه الله ، ولدى أهله وذويه في النظم و النثر ، كما توفرت العلوم والفنون في بيته وقبيلته . وقد بين أحد شعرائهم أصالة العروبة فيهم وارتضاعهم إياها من أمهاتهم في قوله يخاطب من ينكرها عليهم :

لنا العروبة الفصحى وإنا أحق العالمين بها اضطلاعاً

عن الكتب اقتبستموها انتفاعاً

بما فيها ونرضعها ارتضاعاً

المولد : ولد رحمه الله في عام ١٣٢٥ هـ .

الموطن : كان مسقط رأسه رحمه الله عندما يسمى (تنبه)

من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن .

علماً بأن كلمة شنقيط كانت ولا تزال اسماً لقرية من أعمال

مديرية أطار في أقصى موريتانيا في الشمال الغربي .

نشأته رحمه الله : وقبل الحديث عن نشأته يحسن إيجاز نبذة
عن البيئة في تلك البلاد .

تعتبر الحياة الاجتماعية في تلك البلاد بحسب المواطنين قسمين :
عرب وعجم والعربية لغة الجميع .

أما العمل : فالعجم أكثر أعمالهم الزراعة والصناعة وولاتهم
من الزنوج .

وأما العرب فقسمان : طلبة وغير الطلبة . والطلبة من يغلب
عليهم طلب العلم والتجارة وغيرهم من يغلب عليهم التجارة والإغارة .
وهم قبائل عدة ، ومن القبائل من يغلب عليها الطلب ، ومنها من
يغلب عليها الإغارة والقتال

وقبيلة الجسكينين خاصة قد جمعت بين طلب العلم ، وفروسية
القتال . مع عفة عن أموال الناس ، وفي هذا الجو كان طلب العلم على
قدم وساق سواء في حلهم أو ترحالهم ، كما قال بعض مشايخهم العلامة
المختار بن بونا :

ونحن ركب من الأشراف منتظم
أجل ذا المصر قدراً دون أدنانا

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة

بها نبين دين الله تبيانا

أما كرم الطبع فهذا سحجة في جميعهم وأمر يشب فيه الصغير ،
ويشيب عليه الكبير وقد ألفوا الضيف لنجعة منازلهم ، ومن عاداتهم
إذا نزل وفد على بيت ، فإن أهل هذا المنزل يرسلون لأهل بيت
المضيف مما عندهم قل أو أكثر مشاركة في قرى الضيف وتعاوناً مع
المضيف حتى لو كان معدماً غداً واجداً ، ويرحل الوفد وهو في غاية
الرضا . وهكذا دواليك .

وفي هذا الجو وتلك البيئة نشأ رحمه الله كما سمعته يقول : توفي
والدى وأنا صغير أقرأ في جزء عم ، وترك لي ثروة من الحيوان والمال ،
وكانت سكناي في بيت أخوالي وأمى ابنة عم أبي ، وحفظت القرآن
على خالي عبد الله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح جد الأب
المتقدم .

طلبه للعلم : حفظ القرآن في بيت أخواله على خاله عبد الله كما
تقدم ، وعمره عشر سنوات .

قال رحمه الله : ثم تعلمت رسم المصحف العثماني (المصحف
الأم) عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار ، وقرأت

عليه التجويد في مقراً نافع برواية ورش من طريق أبي يعقوب الأزرق وقالون من رواية أبي نسيط ، وأخذت عنه سنداً بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك وعمرى ستة عشر سنة

أنواع الدراسة في القرآن : تعتبر الدراسة في علوم القرآن منهجاً متكامللاً لا تقتصر على الحفظ والأداء ، بل تتناول معرفة رسم المصحف أى نوع كتابته ما كان موصولاً أو مفصلاً ، وما رسم فيه المد أو كان يمد بدون وجود حرف المد ، وقد يكون حرفاً صغيراً أو نحو ذلك .

ثم ضبط ما فيه من منشأيه في الرسم أو التلاوة . ومن المشهور عندهم في هذا رجز (محمد بن بوجه) المشهور المعروف بالبحر ، تعرض فيه لكل كلمة جاءت في القرآن مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع وعشرين مرة أى من الكلمات المشبهة ، وأفرد كل عدد بفصل فتلاً : كلمة (أعينهم) بالرفع جاءت ثلاث مرات قال فيها :

أعينهم بالرفع من غير حضور من بعد كانت وتولت وتدور

ومن الثنائى : كلمة (الاشياء) بالعين قال فيه :

أشياء بالعين فهل من مدكر فى سبيل من قبل بأنهم ذكر

وقد درس هذا كله فى طفولته ، وكانت له زيادة نظم على ذلك

تذيلاً لزيادة الفائدة، كما قال : على البيت الأخير مبيناً حركاته وإعرابه :

فى سورة القمر خاطب وانصبا وجره وغيننه فى سبا
أى فى سورة القمر تكون تلاوتها الخطاب وال نصب « ولقد
أهلكنا أشياعكم » فهل من مدكر .

وفى سورة سبا تكون تلاوتها بالقيّة والجر « كما فعل
بأشياعهم » وهذه دراسة لاتكاد توجد إلا ما شاء الله ، وهى من المهام
العلمية لحفظها رسم القرآن من التغير والتبديل وهى من آثار تعهد
الله بحفظ هذا القرآن المنزل من عنده سبحانه .

ثم قال رحمه الله : وفى أثناء هذه القراءة درست بعض المختصرات
فى فقه مالك كرجز الشيخ ابن عاشر ، وفى أثناءها أيضاً درست
دراسة واسعة فى الأدب على زوجة خالى أم ولد الخال أى أن ولد
خاله يعلمه العلوم الخاصة بالقرآن ، وأمه تعلمه الأدب ، قال : أخذت
عنها مبادئ النحو كالأجرومية وتحرينات ودروس واسعة فى أنساب
العرب وأيامهم ، والسيرة النبوية ، ونظم الغزوات لأحمد البدوى
الشنقيطى وهو يزيد على ٥٠٠ بيتاً وشروحه لابن أخت المؤلف
المروف بحماد ، ونظم عمود النسب للمؤلف وهو يعد بالآلاف

وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص المدنانين، لأنه مات قبل شرح ما يتعلق بالقحطانيين .

هذه دراسة في علوم القرآن والأدب والسير والتاريخ كانت في بيت أخواله على أخواله وأبناء أخواله وزوجات أخواله ، أى كان بيت أخواله المدرسة الأولى إليه . أما بقية الفنون فقال :

١ - أولاً : الفقه المالكي ، وهو المذهب السائد في البلاد درست مختصر خليل بدأ دراسته فيه على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات ثم درس عليه النصف من ألفية ابن مالك . ثم أخذ بقية الفنون على مشايخ متعددة ، في فنون مختلفة ، وكلهم من الجكنيين ومنهم مشاهير العلماء في البلاد منهم :

١ - الشيخ محمد بن صالح المشهور بابن أحمد الأفرم .

٢ - والشيخ أحمد الأفرم بن محمد المختار .

٣ - والشيخ العلامة أحمد بن عمر .

٤ - والفقير الكبير محمد النعمة بن زيدان .

٥ - والفقير الكبير أحمد بن مؤذ .

٦ - والعلامة المتبحر في الفنون أحمد فال بن آده .

وغيرهم من المشايخ الجكنيين .

قال رحمه الله : وقد أخذنا عن هؤلاء المشايخ كل الفنون :
النحو ، والصرف ، والأصول ، والبلاغة . وبمض التفسير والحديث .
أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فقد حصلناه بالمطالعة .

هذا ما أملاه على رحمه الله وسجلته عنه .

علماً بأن الفن الذى درسه على المشايخ أو مطالعة من الكتب ،
لم يقتصر فى تحصيله على دراسته ، بل كان دائماً يديم النظر ويواصل
التحصيل حتى غدا فى كل منه كأنه متخصص فيه ، بل وله فى كل منه
اجتهادات ومباحث مبتكرة ، سنلم بها إن شاء الله عند إيراد المنهج
العلمى لدراسته وآثاره العلمية .

منهج العلمى فى الدراسة :

وقبل إيراد المنهج العلمى له رحمه الله فى دراسته ، نلم بالمنهج العام
السائد فى بلاده لكافة طلبة العلم وطريقة تحصيله .

تعتبر طريقة الدراسة فى تلك البلاد جزءاً من حياة البوادرى حلاً
وارتجالاً . وإذا أقام أحد المشايخ فى مكان توافد عليه الطلاب
للدراصة عليه ومكث حتى يأخذوا عنه ، وقد يقيم بصفة دأعة لدوام
الدراسة عليه ، ويُقال له « الم رابط » ، نظر لإقامته الدأعة لنشر العلم .

ولا يأخذ المرباط من طلابه شيئاً وإن كان ذا يسار ساعد المحتاجين من طلابه ، وقد يساعد أهل ذاك المكان الغرباء من الطلاب

فيزلون حول بيته ويننون لهم خياماً أو مساكن مؤقتة .
ويكون لهم مجلس علم للدرس والمناقشة والاستذكار .

وقد يكون المرباط مختصاً بفن واحد ، وقد يدرس عدة فنون .
فإذا كان مختصاً بفن واحد فإن دروسه تكون في هذا الفن موزعة في عدة . أما كن منه بحسب مجموعات الطلاب ، فقد تكون مجموعة في البداية منه ، ومجموعة في النهاية وأخرى في أثنائه وهكذا . فتتقدم كل مجموعة على حدة فتدرس على الشيخ ، ثم تأتى المجموعة الأخرى وهكذا .

وإذا كان يدرس عدة فنون ، فإنه يقسم طلاب كل فن على النحو

المتقدم .

إفراد الفنون : ولا يحق لطالب أن يجمع بين فنين في وقت واحد ، بل يدرس فناً حتى يكمله كالنحو مثلاً ، ثم يبدأ في البلاغة حتى يكملها . وهكذا يبدأ مثلاً في الفقه حتى يفرغ منه ثم يبدأ في الأصول حتى يكمله . سواء درسها على عدة مشايخ أو على شيخ واحد .

طريقة الدراسة اليومية : يبدأ الطالب بكتابة المتن في اللوح الخشبي فيكتب قدر ما يستطيع حفظه ، ثم يمحوه ، ثم يكتب قدر آخر حتى يحفظ مقراً من الفن حسب التقسيم المهود . فمثلا النحو ، تعتبر الألفية أربعة مقارء ، ويعتبر متن خليل في الفقه نحواً من ذلك .

فإذا حفظ الطالب مقراً من الفن تقدم للدراسة فيشرحه له الشيخ شرحاً وافياً بقدر ما عنده من تحصيل ، دون أن يفتح كتاباً أو يحضر في مرجع ثم يقوم هؤلاء للاستذكار فيما بينهم ومناقشة ما قاله الشيخ ، وقد يأخذون بعض الشراح لمقابلاته على ما سمعوه أو يرجعون إلى بعض الحواشي ، ولا يجتازون ذلك المكان من الدرس حتى يروا أنهم قد حصلوا كل ما فيه . وليس عليهم من سرعة أو إنهاء كتاب بقدر ما عليهم من فهم وتحصيل ما في الباب ، وقد ذكروا عن بعض الطلاب ممن عرفوا بالذكاء والقدرة على التحصيل ، أنه كان لا يزيد في متن خليل على سطرين فقط . فقليل له . لم لا تزيد وأنت قادر على التحصيل فقال : لأنني عجلان لأعود إلى أهلي ، فقالوا له إن العجلان يزيد في حصته ، فقال أريد أن أتقن ما أقرأ حتى لا أحتاج إلى إعادة دراسته فأتأخر .

الحياة الدراسية :

دراسة الشيخ رحمه الله : على هذا المنهج كانت دراسة الشيخ رحمه الله ، إلا أنه تميز ببعض الأمور ، قل إن كانت لغيره . نوجز منها كالآتي :

١ - في مبدأ دراسته : تقدم أنه أتبع له في بادئ دراسته ما لم يتبع لغيره حيث كان يتأخر أحواله مدرسته الأولى . فلم يرحل في بادئ أمره للطلب . وكان وحيد والديه ، فكان في مكان التدلل والعناية .

٢ - قال رحمه الله : كنت أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة حتى حفظت الحروف الهجائية وبدأوا يقرئوني إياها بالحركات ، بافتحة با ، بي كسرة بي ، ب بو ضمة بو ، وهكذا دث . فقلت لهم أؤكل الحروف هكذا ؟ قالوا : نعم . فقلت : كفى إني أستطيع قراءتها كلها على هذه الطريقة كي يتركونني فقالوا : اقرأها ، فقرأت بثلاثة حروف أو أربعة وتنقلت إلى آخرها بهذه الطريقة ، فعرفوا أنني فهمت قاعدتها واكتفوا مني بذلك وتركوني . ومن ثم حببت إلى القراءة .

٣ - وقال رحمه الله : ولما حفظت القرآن ، وأخذت الرسم

العثماني ، وتفوقت فيه على الأقران عُنيت بي والدتي وأخوإلى أشد عناية ، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون . فجهزتي والدتي بجلبين أحدهما عليه مركبي وكتبي ، والآخر عليه نفقتي وزادى ، وصحبنى خادم ومعه عدة بقرات ، وقد هيئت لى مركبي كأحسن ما يكون من مركب ، وملابس كأحسن ما تكون فرحاً بي وترغيباً لى فى طلب العلم . وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل .

تقوم الحياة الدراسية على أساس منع الكلفة وتعام الألفة سواء بين الطلاب أنفسهم أو بينهم وبين شيخهم مع كمال الأدب ووقار الحشمة . وقد تتخللها الطرف الأدبية والمحاورت الشعرية ، ومن ذلك ما حدثني رحمه الله . قال : قدمت على بعض المشايخ لأدرس عليه ولم يكن يعرفنى من قبل ، فسأل عني من أكون ، وكان فى ملا من تلامذته فقلت مرتجلاً :

هذا فتى من بنى جا كان قد نرلا	به الصبا عن لسان العرب قد عدلا
رمت به همة علياء نحوكم	إذ شام برق علوم نوره اشتعلا
فجاء يرجو ركاما من سحائبه	تكسو لسان الفتى أزماره حلا

إذ ضاق ذرعاً بجهل النحوثم أبا ألا يميز شكل العين من فعلاً
قد أتى اليوم صبا مولماً كلفاً بالحمد لله لا أبغى له بدلاً

يريد دراسة لامية الأفعال :

وقد مضى رحمه الله في طلب العلم قدماً وقد ألزمه بعض مشايخه
بالقرآن . أى أن يقرن بين كل فنين حرصاً على سرعة تحصيله وتفرساً
له في القدرة على ذلك ، فأنصرف بهمة عالية في درس وتحصيل .

وقد خاطبه بعض أقرانه في أمر الزواج فقال في ذلك ، وفي
الحث على طلب العلم :

دعاني الناصحون إلى النكاح	غداة تزوجت بيض الملاح
فقالوا لى تزوج ذات دل	خلوب اللحظ جائلة الوشاح
تبسم عن نوشرة رفاق	يمج الراح بالماء القراح
كأن لحاظها رشقات نبل	تذيق القلب آلام الجراح
ولا عجب إذا كانت لحاظ	ليبيضاء المحاجر كالرماح
فكم قتلا كميتا ذا ولا حى	ضميفات الجفون بلا سلاح
فقلت لهم دعوني إن قلبي	من العى الصراح اليوم صاحى
ولى شغل بأبكار عذارى	كأن وجوها صنوء الصباح

أراها في المهارق لإبسات براقع من معانيها الصالح
 أبيت مفكراً فيها فتضحى لفهم القدم خافضة الجناح
 أبحت حريمها جبراً عليها وما كان الحريم بمستباح
 نعم، إنه كان يبيت في طلب العلم مفكراً وباحثاً حتى يذل
 الصعاب، وقد طابق القول العمل .

حدثني رحمه الله قال : جئت للشيخ في قراءتي عليه فشرح لي كما
 كان يشرح ، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت ، ولم
 يرو لي ظمئى . وقت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض
 اللبس وإيضاح بعض المشكل وكان الوقت ظهراً فأخذت الكتب
 والمراجع فطالمت حتى العصر ، فلم أفرغ من حاجتي فعاودت حتى
 المغرب فلم أته أيضاً ، فأوقد لي خادى أعواداً من الحطب أقرأ على
 ضوئها كمادة الطلاب ، وواصلت المطالمة وأتناول الشاهى الأخضر
 كلما مللت أو كسلت والخادم بجوارى يوقد الضوء حتى انبثق الفجر
 وأنا في مجلسى لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام وإلى أن ارتفع
 النهار وقد فرغت من درسى وزال عني لبسى ، ووجدت هذا الحل من
 الدرس كثيره في الوضوح والفهم فتركت المطالمة ونمت ، وأوصيت
 خادى أن لا يوقظنى لدرسى في ذلك اليوم اكتفاء بما حصلت عليه
 واستراحة من عناء سهر البارحة .

فقد بات مفكراً فيها فأضحت لفهم القدم خافضة الجناح
 وإن هذا لدرس لأبنائه ومنهج لطلاب العلم في الصبر والدأب.
 والمثابرة. وقد نفى الله بهذه الحادثة في دراستي وتدريسي وخاصة
 في صورة مشابهة في الفرائض لم أكن درستها على أحد وكان
 الاختبار في المقروء لا في المقرر .

وتلك هي آفة الدراسة النظامية اليوم وكنت كلما ضجرت في
 تحقيقها ، تذكرت قصته رحمه الله فصبرت حتى -صلتها والله الحمد
 والمنة . وكان من بعد الظهر إلى هزيع من الليل . ولكن كم كانت
 لذتي وارتياحي .

ومع هذه الشاعرية الرقراقة والمعاني المذاب القياضة والأسلوب
 السهل الجزل ، فقد كان يتباعد رحمه الله عن قول الشعر مع وفرة
 حفظه إياه ، وله في ذلك أبيات يقول فيها :

أثقت من داء الهوى بملاج	شيب يزير مفارق كالنجاج
قد صدني حلم الأكابر عن لمى	شفة الفتاة الطفلة المنجاج
ماء الشبية زارع في صدرها	رمانتي روض كحق العاج
وكأنها قد أدرجت في برقع	يا ويلتاه بها شعاع سراج
وكأنما شمس الأصيل مذابة	تنساب فوق جبينها الوهاج

يعلو لموقع جنبها في خدرها فوق الحشية ناعم الديباج
لم يبك عيني بين حى جيرة شدوا المطى بأنسع الأحداج
فلدت بأنغام اللحن حداتهم فتزيلوا والليل أليل داجى
لا تصطبيني^(١) عاتق فى دلها رقت فراقى فى رفاق زجاج
مغضوبة منها بنان مديرها إذ لم تكن مقتولة بمزاج

طابت نفوس الشرب حيث أدارها

رشأ رى بإحاط طرف ساجى
أو ذات عود أنطقت أوتارها بلحون قول للقلوب شواجى
فتخال رنات المثنائى أحرفا قد رددت فى الحلق من مهتاج

وقد سألته رحمه الله عن تركه الشعر مع قدرته عليه وإجادته
فيه فقال : لم أره من صفات الأفاضل وخشيت أن أشتهر به ،
وتذكرت قول الشافعى فيما ينسب إليه :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لييد
ولأن الشاعر يقول فى كل مجال . والشعر أكذبه أعذبه .
فلم أكثر منه لذلك .

(١) أى لا تستبيني .

ومع هذا فقد كانت له رحمه الله عدة مؤلفات نظماً في عدة فنون سيأتى بيانها إن شاء الله .

أعماله في البلاد : كانت أعماله رحمه الله كعمل أمثاله من العلماء :
الدرس والفتيا ، ولكنه كان قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه ورغم وجود الحاكم الفرنسى إلا أن المواطنين كانوا عظمى الثقة فيه فيأتونه للقضاء بينهم ويفدون إليه من أما كن بعيدة أو حيث يكون نازلاً .

طريقته في القضاء : كان إذا أتى إليه الطرفان استكتبتهما رغبتهما في التقاضى إليه وقبولهما ما يقضى به ثم يستكتب المدعى دعواه ويكتب جواب المدعى عليه أسفل كتابة الدعوى ويكتب الحكم مع الدعوى والإجابة ويقول لهما اذهبا بها إلى من شئتما من المشايخ أو الحكام .

أما المشايخ فلا يأتى أحدهم قضية فضاها إلا صدقوا عليها . وأما الحكام فلا تصلهم قضية حكم فيها إلا نفذوا حكمه حالاً . وكان يقضى في كل شئ إلا في الدماء والحدود وكان للدماء قضاء خاص .

قضاء الدماء : كان الحاكم الفرنسى في البلاد يقضى بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة واسعة النطاق وبعد تمحيص القضية

وإنهاء المرافعة وصدور الحكم يعرض على عالين جليلين من علماء البلاد ليصادقوا عليه، ويسمى العالين لجنة الدماء ولا ينفذ حكم الإعدام في القصاص إلا بعد مصادقتهما عليه .

وقد كان رحمه الله أحد أعضاء هذه اللجنة ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره وعظم تقديره ، وكان عالماً من أعلامها وموضع ثقة أهلها وحكامها ومحكومها .

خروجه من بلاده رحمه الله : كان خروجه من بلاده لأداء فريضة الحج وعلى نية العودة وكان سفره برآ ، كتب فيه رحلة ضمنها مباحث جليلة كان آخرها مبحث القضايا الموجهة في المنطق مع علماء أم درمان بالمعهد العلمي بالسودان .

وبعد وصوله إلى هذه البلاد تجددت نية بقاءه ولعل من الخير وبيان الواقع ذكر منبب بقاءه : لقد كان في بلاده كغيره يسمع الدعاية ضد هذه البلاد باسم الوهاية ، إلا أن بعض الصدف قد تغير من وجهات النظر « وإذا أراد الله أمراً هياً له الأسباب » ومن عجيب الصدف أن ينزل رحمه الله في بعض منازل الحج بجوار خيمة الأمير خالد السديري دون أن يعرف أحدهما الآخر ، وكان الأمير خالد يبحث مع جلسائه يتكلم في الأدب وهو ذواق أديب وامتد الحديث

إلى أن سألوا الشيخ لعله يشاركونهم فوجدوا ببحراً لا ساحل له ، ومن تلك الجلسة وذاك المنزل تعدلت الفكرة بل كانت تلك الخيمة بداية منطلق لفكرة جديدة ، وأوصاه الأمير إن هو قدم المدينة أن يلتقي بالشيخين الشيخ عبد الله الزاحم رحمه الله والشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله .

وفي المدينة التقى بهما رحمه الله . وكان صريحاً معهما فيما يسمع من البلاد وكانا حكيهين فيما يعرضان عليه ، ما عليه أهل هذه البلاد من مذهب في الفقه ومنهج في العقيدة .

وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح . وأخيراً قدّم للشيخ كتاب المغنى كأصل للمذهب وبعض كتب شيخ الإسلام كنهج للعقيدة ، فقرأها الشيخ وتعددت اللقاءات وطالت الجلسات فوجد الشيخ مذهباً معلوماً لإمام جليل من أئمة أهل السنة وسلف الأمة أحمد بن حنبل رحمه الله .

كما وجد منهجاً سليماً لعقيدة السلف تعتمد الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، فذهب زيف الدعايات الباطلة وظهر معدن الحقيقة الصريحة ، وتوطدت العلاقة بين الطرفين ، وتجددت رغبة متبادلة في بقاءه لإفادة المسلمين .

ورغب رحمه الله في هذا الجوار الكريم وكان يقول : ليس من عمل أعظم من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتم ذلك بأمر من جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله وكان الشيخان أقرب الناس إليه ودرس الشيخ عبد العزيز بن صالح الصرف والبيان عليه . رحم الله الموتى وحفظ الله الأحياء .

وهنا كلمة يجب أن يقال للحقيقة ولطلبة العلم خاصة . نضعها في ميزان العدالة وقانون الإنصاف : لقد كان لجالوس الشيخ رحمه الله فائدة مزدوجة استفاد وأفاد .

أما استفادته فأمر حتمى ومنطقه علمى للآتى :

وهو أن منهج الدراسة في بلاده كان منصباً أكثر ما يكون على الفقه ، وفى مذهب مالك فقط . وعلى العربية متناً وأسلوباً . والأصول والسيرة والتفسير . وتقدم أنه رحمه الله درس المنطق بالمطالعة ولم تكن دراسة الحديث تحظى بما يحظى به غيرها للاقتصار على مذهب مالك . وكان الشيخ رحمه الله إماماً فى كل ما تقدم مما هو شائع فى البلاد .

ولما عزم على البقاء وبدأ التدريس فى المسجد النبوى وخالط العامة والخاصة وجد من يمثل المذاهب الأربعة ، ومن يناقش فيها ،

ووجد في المسجد النبوي دراسة لا تقتصر على مذهب مالك . بل ولا على غيره ، فكان لابد من دراسة بقية المذاهب بجانب مذهب مالك ، وبما أن الخلاف المذهبي لا ينييه إلا الحديث أو القرآن ، فكان لزاماً من التوسع في دراسة الحديث ، وقد ساعد الشيخ على هذا التوسع والاستيعاب وقوة الاستدلال ودقة الترجيح ما هو متمكن فيه من فن الأصول والعربية ، مع توسعه في دراسة الحديث ، وبالأخص المجاميع كنيل الأوطار وفتح الباري وغيرها .

وقد ظهر ذلك في منهجه في أضواء البيان حينما يعرض لمبحث فقهي مختلف فيه فيستوفى أقوال العلماء ، ويرجع ما يظهر له ، يقتضي الدليل عقلاً كان أو نقلاً .

وهذا المنهج هو سبيل أهل التحصيل الدأب على الدراسة ، ومواصلة المطالعة والتنقيح .

أما في العقيدة فقد بلورها منطقاً ودليلاً ، ثم لخصها في محاضرة آيات الأسماء والصفات في أول محاضرات الجامعة ثم بسطها ووضحها إيضاحاً شافياً في أخريات حياته ، في كتابي آداب البحث والمناظرة دليلاً واستدلالاً وعرضاً وإقناعاً . ومن آثار بيانه لها وأسلوبه فيها ما قاله فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله

لما سمع بيان الشيخ لعقيدة السلف في مسجد الشيخ محمد رحمه الله قال : جزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيراً على بيانه هذا ، فالجاهل عرف العقيدة ، والعالم عرف الطريقة والأسلوب .

وهذه الحقيقة تضع بين يدي طالب العلم منهج الاستزادة في التحصيل وطموحه فيه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « من هو مان لا يشبعان أبداً : طالب علم وطالب مال » . هذا جانب استفادته ، أما جانب إفادته فهو ما سنتحدث عنه إن شاء الله .

أولاً في المسجد النبوي : يعتبر التدريس في المسجد النبوي من أم التدريس في كبريات جامعات العالم ، في نشر العلم ، وهو الجامعة الأولى للتشريع الإسلامي . منذ عهد النبوة . وحين كان جبريل عليه السلام يأتي لتعليم الإسلام في مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم . ومنذ كانت مجالس الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة رضی الله عنهم أجمعين . إذ كانت المدينة العاصمة العلمية وظلت محافظة على مركزها العلمي ، ولم تخل في زمن من الأزمان من عالم يقوم بحق الله فيها .

وقبل مجيء الشيخ رحمه الله كان قبله الشيخ الطيب رحمه الله نفع الله به كثيراً . وتوفي سنة ١٣٦٣ هـ . فكان جلوس الشيخ

رحمه الله للتدريس في المسجد النبوي امتداداً لما كان قبله مع من كان من العلماء بالمسجد النبوي آنذاك من تلاميذ الشيخ الطيب وغيرهم . وكان درس الشيخ في التفسير ختم القرآن مرتين

منهجه في درسه : من المعلوم أن التفسير لا ينحصر في موضوع فهو شامل عام بشمول القرآن ومجمومه ، فكان المنهج أولاً بيان المفردات ثم الإعراب والتصريف ثم البلاغة مع إيراد الشواهد على ما يورد .

ثم يأتي إلى الأحكام إن كان موضوع الآية فقهاً ، فيستقصى باستنتاج الحكم وبيان الأقوال والترجيح لما يظهر له . ويدعم ذلك بالأصول وبيان القرآن وعلوم القرآن من عام وخاص ومطلق ومقيد وناسخ ومنسوخ وأسباب نزول وغير ذلك .

وإذا كانت الآية في قصص أظهر العبر من القصة وبين تاريخها وقد يربط الحاضر بالماضي كربط تكشف النساء اليوم بفتنة إبليس لهواء في الجنة ينزع عنهما لباسهما ليرهما سوأتهما وفتنته للجاهلية حتى طافوا بالبيت عرايا رجالاً ونساءً وها هو يستدرجنهم في التكشف شيئاً فشيئاً . بدأ بكشف الوجه ثم الرأس ثم

الذراعين ... الخ. فكان أسلوباً علمياً وتربوياً في آن واحد، كما كان أحكاماً وحكماً.

وكان درسه أشبه بحديقة غناء احتوت أشهى الثمار وأجمل الأزهار، في تنسيق الفرس وجمال الجداول تشرح الصدر وتشفي القلب وتروق للعين. فيستفيد منه جميع الناس ويأخذ كل واحد ما طاب له وما وسعه.

وقد يستطرد للقاعدة بمبحث كامل كما استطرد في الرد على ابن حزم في رده القياس بإتيانه بأنواعه عند قوله « ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك » وقد طبع في نهاية مذكرة الأصول تعميماً للفائدة. وبهذا الشمول والاستقصاء لم يكن يترك مجالاً لسؤال ولم يبق لذى حاجة تساؤل.

وأذكر كلمة لقاضي قرية (قرو) في موريتانيا بعد أن سئل رحمه الله عن مهام من المسائل العلمية، وأجاب إجابة مستفيضة مفصلة كافية. قال فاضى قرو: لم يبق لأحد هنا كلام فقد ظهر الحق. ولا سؤال فقد زال اللبس وإن الحضور بين أحد رجلين عالم، فقد عرف الحق فلم يبق له سؤال، وجاهل فلا يحق له أن يسأل.

فكان نفعه رحمه الله في المسجد النبوي للمقيم والقادم للقاص
والداني نفعا عظيما .

ثانياً : في سنة ١٣٧١ هـ افتتحت الإدارة العامة بالرياض على
مهد علمي ، تلاه عدة معاهد وكليتا الشريعة واللغة .

واختير للتدريس في المعهد والكليتين نخبة من العلماء من
داخل وخارج المملكة . وكان رحمه الله ممن اختير لذلك فتولى
تدريس التفسير والأصول إلى سنة ١٣٨١ هـ حين افتتحت الجامعة
الإسلامية بالمدينة .

آثاره في الرياض : كانت مدة اختياره للتدريس بالرياض
عشر سنوات دراسية ، يعود لقضاء العطلة بالمدينة ، وما كان عمله
في التدريس بالمعهد والكلية كغيره من المدرسين . ولكن لبيان
أثره حقيقة نورد نبذة عن الحالة العلمية آنذاك بالرياض .

كانت الرياض عاصمة نجد علمياً وسياسياً وكان يفد إليها طلاب
العلم من أنحاء نجد لأخذ العلم عن آل الشيخ . وكان مركز
الدراسة والتدريس في المساجد إلا خواص الطلاب لدى سماحة
المفتي فيدرسون عليه بعض الدروس في بيته ضحى ، وكانت

الدراسة مما دعا التوحيد والفقه والتفسير وكذلك الحديث والسيرة والنحو، وكانت دراسة مباركة تخرج عليها جميع علماء نجد، حتى جاءت تلك الحركة العلمية الجديدة، أو تنظيم الدراسة الجديد في عام ١٣٧١ هـ .

نشأة هذه الحركة : كانت نشأتها كما سمعت منه رحمه الله استجابة لرغبة المرحوم جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله . قال جماعة العلماء وهم في مجلسه الخاص : لقد كانت الرياض مليئة بالعلماء عامرة بالدروس . وانتقل الكثير منهم إلى رحمة الله ولم يخلفهم من يماثلهم وأردت تعاونكم مع سماحة المفتي في تربية جيل من طلبة العلم عن العلوم الصحيحة والمعقيدة السليمة ، فنحن وأنتم مشتركون في المسئولية . فكانت هذه النهضة ترعاها عناية ملكية وتقوم عليها كفاءة علمية ، تولى إدارة المعهد الشيخ عبد اللطيف ابن إبراهيم ورئاسته لسماحة المفتي ، وافتتحت الدراسة على طلاب حلق المساجد الأكفاء وفيهم خراس طلاب فضيلة الشيخ محمد رحمه الله وأبناءؤه . صنفت الدراسة على ثلاث سنوات ثانوية ومنها إلى الكلية يفندى هذا القسم قسم تمهيدى يأخذ من رابعة ابتدائي ويدرس خامسة وسادسة ومن ثم للمعهد الثانوى فالكليةتين ..

المنهج العلمى : وضع المنهج العلمى لتلك الدراسة على أساس
 فى العلوم الدينية والعربية وتكميل من المواد الاجتماعية وعلوم
 الآلة من مصطلح وأصول حتى الحساب والتقويم والخط والإملاء
 والتجويد . فكان قوياً فى موضوعه شاملاً فى منهجه . وكان
 الطلاب من الصفوة الذين درسوا فى المساجد المتعطشين للعلوم
 متطلعين للتوسع وكان القائمون على التدريس نخبة ممتازة من
 الأجلة الفضلاء من وطنيين وأزهريين . فكان الجو حقاً جداً
 علمياً التقت فيه همه عالية من طلاب جيدين مع عزيمة ماضية
 من مشايخ مجتهدين . كان يسودهم الشعور بأن هذه طليعة نهضة
 علمية واسعة ، وكان رحمه الله كوالد للجميع وكان درسه التفسير
 والأصول . فكان فى التفسير المجال الواسع لجميع المواد والعلوم .
 وكان مع التزامه بالمنهج والحرص إذا تناول بحثاً فى أى مادة
 يخاله السامع مختصاً فيها ، فعرف له الجميع قدره وتطلع الجميع إلى
 ما عنده حتى المدرسون : وقد رغب المدرسون آنذاك فى قراءة
 بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية واستيعاب دقائقه فلم يكن
 أولى بذلك من فضيلته رحمه الله . خصص لذلك مجلس خاص
 فى صحن المعهد بدخنه بين المغرب والعشاء .

في مسجد الشيخ : وفي مسجد الشيخ محمد رحمه الله بدأ
درس الأصول لكبار الطلبة في قواعد الأصول ، حضره العامة
والخاصة وكان يتوافد إليه من أطراف الرياض ، وكان الشيخ
عبد الرحمن الإفريقي رحمه الله يدرس الحديث وكان درس الأصول
بمناوبة فتح جديد في هذا الفن .

في بيته رحمه الله : ولما كان الدرس في الأصول في المسجد
عاماً وفي الطلبة من خواصهم رغبوا في درس خاص في بيته
رحمه الله ، فكان لهم درس خاص بعد العصر . وكان بيته رحمه
الله كمدرسة سواء لأبنائه الذين رافقوه للدراسة عليه وقد أُملي
شرحاً على مراقى السعود في بيته على أخينا أحمد الأحمد الشنقيطي .

لقد كان اتدريسه هذا سواء رسمياً في المعهد والكليتين أو
في المسجد ، أو في المنزل كان له أثر طيب وتناجح حسنة لا يسع
متحدث التحدث عنها بقدر ما تحدثت هي عن نفسها في أعمال
كافة المتخرجين من تلك المعاهد والكليتين المنتشرين في أنحاء
المملكة المبرزين في أعمالهم وفي أعلى مناصب في كافة الوزارات .

ولا ينبغي من يقول إن كل من تخرج أو يتخرج فهو

إما تلميذه أو لتلاميذه فهم بمثابة أبنائه وأحفاده وكفى .

تقدير المسؤولين له : لقد كان بعلمه ونصحه وجهده وعفته موضع تقدير من جميع المسؤولين وبالأخص أصحاب الفضيلة آل الشيخ وصاحب الجلالة الملك عبد العزيز وصاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وكان أشد الناس تقديرآ له . وقد منحه جلالة الملك رحمه الله أمراً بالجنسية لجميع من ينتسب إليه وفي كفالته ثقة به وإكراماً له .

ولما زار الملك محمد الخامس ملك المغرب الرياض استأذن في صحبة الشيخ إلى المدينة فرافقه تقديرآ وإكراماً وألقى محاضرته بالمسجد النبوي بحضور الملك محمد الخامس بعنوان « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » وقد طبعت مرتين . وهكذا قدم الرياض رحمه الله في ترحيب وإكرام وانتقل منها في إعزاز وإكبار بعد أن ترك فيها أطيب الآثار . وسام في أكبر نهضة علمية في البلاد .

دوره رحمه الله في الجامعة الإسلامية : إن من يعرف نشأة الجامعة الإسلامية ، وقد عرف الحركة العلمية الحديثة بالرياض ليقول إن

افتتاح الجامعة الإسلامية امتداداً للحركة العلمية الحديثة بالرياض .

والمتابع للحركات العلمية في العالم الإسلامى ليقول إن افتتاح الجامعة الإسلامية في ذلك التاريخ عناية من الله وتداركاً للتعليم الإسلامى حينما أصيبت بعض دور العلم الكبرى بهزات في برامجها .

فكان إيجادها امتداداً للحركة العلمية الحديثة بالرياض ومحيثها آنذاك تداركاً لبعض مافات ولعلها جزء من تحقيق الحديث : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » . ومعلوم أن الإيمان عقيدة وعمل والعلم قبله .

ومن هنا نجدد أو نذكر أهمية الجامعة الإسلامية ومدى وجودها بالمدينة المنورة ، وبالتالي محبى أبناء العالم الإسلامى إليها للدراسة وللتربية في هذا الجو الروحى لتبرز لنا قيمة العمل في الجامعة وأن رسالتها تربوية بجانب أنها علمية ، وأنها منعت الانتساب دون الحضور لهذا الغرض نفسه .

وقد كان لو الدنار رحمه الله في هذه المجالات اليد الطولى والمجهود الأكبر فلم يدخر وسعاً في تعليم ولم يتوانى في توجيه سواء في دروسه أو أحاديثه أو محاضراته وسواء مع الطلاب أو المدرسين فكان كالأب

الرحيم والداعية الناصح الأمين . تحمل عنه تلاميذه إلى أنحاء العالم الإسلامي حينما وصلت منع الدراسة بالجامعة الإسلامية لبلدان العالم الإسلامي فهل يمكن أن نقول ولو ادعاء أو تجاوزاً إنه كان بحق في منزلة شيخ الإسلام في هذا الوقت . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقد كان بجانب التعليم عضو مجلس الجامعة سام في سيرها ومناهجها ، كما سام في إنتاجها وتعليمها .

وفي سنة ١٩٨٦ هـ افتتح معهد القضاء العالي بالرياض برئاسة فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي وكانت الدراسة فيه ابتداء على نظام استقدام الأساتذة الزائرين فكان رحمه الله ممن يذهب لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول .

قدامتداد نشاطه خارج المملكة : إذا كانت الجامعة الإسلامية فتحت للبلاد نوافذ تطل منها على العالم الإسلامي كله ، وجعلت من حق أولئك الأبناء ما يجب من رعايتهم وحق تلك الأفطار ما يلزم من تقوية أواصر الروابط . فكانت فكرة إرسال بعثات إلى الأفطار الإسلامية وخاصة إفريقيا ، فكان رحمه الله على رأس بعثة الجامعة

إلى عشر دول أفريقية بدأت بالسودان ، و انتهت بموريتانيا موطن الشيخ رحمه الله . كان لهذه البعثة في تلك البلاد أعظم الأثر وأذكر في مجلس من أفاضل البلاد بموريتانيا وفي حفل تكريم للبعثة وكل إلى ضيلته رحمه الله كلمة الجواب فكان منها إن الذّريات لتحدث وإنها لساعة عجيبة أدارت عجلة الزمان حيث نشأ الشيخ في بلاد كم ثم هاجر إلى الحجاز ثم ها هو يعود إليكم على رأس وفد ورئاسة بعثة فقد نبئت غرسة علمه هنا عندكم فذهب إلى الحجاز فتمت وترعرعت فامتدت أغصانها حتى شملت بوارف ظلها بلاد الإسلام شرقاً وغرباً وها نحن في موطنه نجني ثمار غرسها ونستظل بوارف ظلها . فكانت تلك الرحلة حقاً حلقة اتصال وتجديد عهد وإحياء معالم للإسلام .

وكان له رحمه الله العديد من المحاضرات والمحادثات سجلت كلها في أشرطة لانزال محفوظة ، آمل أن أوفق لنقلها وطبعها إتماماً للفائدة إن شاء الله . ونضم إليها منهجه وسلوكه مع الحكم وصغار الطلاب والعوام مما يرسم الطريق الصحيح للدعوة إلى الله على بصيرة وبالْحكمة والموعظة الحسنة .

في هيئة كبار العلماء : وكما شكلت هيئة كبار العلماء بعد سماحة المفتي رحمه الله ، وهي أكبر هيئة علمية في البلاد . كان رحمه الله

أحد أعضائها . وقد ترأس إحدى دوراتها فكانت له السياسة الرشيدة والنتائج الحميدة . سمعت فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح حفظه الله وهو عضو فيها يقول : ما رأيت قبله أحسن إدارة منه مع بُعد نظر في الأمور ، وحسن تدبر للعواقب .

في الرابطة : وفي رابطة العالم الإسلامي كان عضو المجلس التأسيسي لم تقلّ خدماته فيه عن خدماته في غيرها . أذكر له موقفاً حدثني به جنب الرابطة مأزقاً كاد أن يدخل عليها شقاقاً أو انتحلاًماً .

حينما قدم مندوب إيران وقدم طلباً باعتراف الرابطة بالمذهب الجعفرى ومعه وثيقة من بعض الجهات العلمية الإسلامية ذات الوزن الكبير تؤيده على دعواه وتجيبه إلى طلبه . فإن قبلوا طلبه دخلوا مأزقاً وإن رفضوه واجهوا حرجاً فافترحوا أن يتولى الأمر فضيلته رحمه الله في جلسة خاصة . فأجاب في المجلس قائلاً : لقد اجتمعنا للعمل على جمع شمل المسلمين والتأليف بينهم وترباطهم أمام خطر عدوهم ، ونحن الآن مجتمعون مع الشيعة في أصول هي :

الإسلام دين الجميع والرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسول الجميع والقرآن كتاب الله والكعبة قبله الجميع والصلوات الخمس وضوم

وحج بيت الله الحرام ومجتمعون على تحريم المحرمات من قتل وشرب وزنا وسرقة ونحو ذلك . وهذا القدر كاف للاجتماع والترابط . وهناك أمور نعلم جميعاً أننا نختلف فيها وليس هذا مشار بحثها ، فإن رغب العضو الإيراني بحثها واتباع الحق فيها فليختر من علمائهم جماعة ونختار لهم جماعة ويبحثون ما اختلفنا فيه ويعلمن الحق ويلتزم به . أو يسحب طلبه الآن . فأقر الجميع قوله وسحب العضو طلبه .

وهكذا كان رحمه الله حكيماً في تعليمه حكيماً في دعوته حكيماً في بحثه وإقناعه . وقد ظهر ذلك كل الوضوح في مؤلفاته .

مؤلفاته رحمه الله : لاشك أن كل مؤلف يحكى شخصية مؤلفه في علمه وفي عقله بل وفي اتجاهه كما قالوا : من ألف فقد استهدف ، أى لأنه يمرض ما عنده على أنظار الناس . وللشيخ تأليف عديدة منها في بلاده ومنها هنا . فما كان في بلاده هو :

١ - في أنساب العرب نظماً ألفه قبل البلوغ يقول في أوله :

سميته بخالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان

وبعد البلوغ دفعه قال لأنه كان على نية التفوق على الأقران ، وقد

لامه مشايخه على دفنه وقالوا : كان من الممكن تحويل النية وتحسينها -

٢ - رجز في فروع مذهب مالك يختص بالعقود من البيوع والرهون وهو آلاف متعددة قال في أوله :

الحمد لله الذي قد ندبا لأن نغيز البيع عن لبس الربا
ومن المؤلفين كتباً ترك أطواد الجهالة هبا
تكشف عن عين الفؤاد الحجا

إذا حجاب دون علم ضربا

٣ - ألفية في المنطق - أولها :

حمداً لمن أظهر للمقول حقائق المنقول والمعقول
وكشف الرين عن الأذهان بواضح الدليل والبرهان
وفتح الأبواب للألباب حتى استبان ما وراء الباب

؛ - نظم في الفرائض :

ولها :

تركة الميت بعد الخامس من خمسة محصورة عن سادس
وحصرها في الخمسة استقراء وانبذ لحصر العقل بالعماء
أولها الحقوق بالأعيان تعلقت كالرهن أو كالجاني

وكركاة التمر والحبوب إن مات بعد زمن الوجوب
وكل هذه المؤلفات مخطوطة .

أما مؤلفاته هنا فهي :

١ - منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز . وموضوعها
إبطال إجراء المجاز في آيات الأسماء والصفات وإيفائها على الحقيقة .
وقد زاد هذا المعنى فيما بعد في آداب البحث والمناظرة .

٢ - دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب ، أبان فيه مواضع
ما يشبه التعارض في القرآن كله كما في قوله تعالى « وقفوهم إنهم
مسؤولون » مع قوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان »
وأن السؤال متنوع والمواقف متعددة . وقد طبع وما قبله ونقدا .

٣ - مذكرة الأصول على روضة الناظر : جمع في شرحها أصول
الحنابلة والمالكية وبالتالي الشافعية . مقررة على كليتي الشريعة
والدعوة .

٤ - آداب البحث والمناظرة : أوضح فيه آداب البحث من
إيراد المسائل وبيان الدليل ونحو ذلك . وهو أيضاً مقرر في الجامعة
ومن جزأين

هـ — أضواء البيان لتفسير القرآن بالقرآن: وهو مدرسة كاملة يتحدث عن نفسه طبع منه ستة أجزاء كبار والسابع تحت الطبع، وصل فيه رحمه الله إلى نهاية «قد سمع». ولعل الله ييسر ويوفق من يعمل على إكماله ولو بقدر المستطاع. ومن عجيب الصدف أن يكون موقفه رحمه الله في التفسير على قوله تعالى: «أوائك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون».

وهنا العديد من المحاضرات ذات المواضيع المستقلة طبعت كلها ونفدت وهي:

١ — آيات الصفات: أوضح فيها تحقيق إثبات صفات الله.

٢ — حكمة التشريع: عالج فيها العديد من حكمة التشريع في كثير من أحكامه.

٣ — المثل العليا: بين فيها المثالية في العقيدة والتشريع والأخلاق.

٤ — المصالح المرسلة: بين فيها ضابط استعمالها بين الإفراط والتفريط.

هـ — حول شبهة الرقيق: رفع اللبس عن ادعاء استرقاق

الإسلام للأحرار.

٦ - على اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ،
ألقاها بحضرة الملك محمد الخامس عند زيارته للمدينة . وكلها عامة
نافعة جديدة .

وبالتالى فقد كان لمنهجه العلمى فى أبحاثه وتدريسه وفى مؤلفاته .
إحياء لعلوم درست وتصحيحاً لمفاهيم اختلفت .

فما أحيا من العلوم علم الأصول الذى هو أصل الاستدلال
والاستنباط . والاجتهاد والترجيح وعمدة المجتهد وعماده وبجمله
لا يحق الاجتهاد ويحب التقليد المحض . كما يقولون : جهلة الأصول عوام
العلماء : ففتح أبوابه وسهل صغابه وأوضح قواعده ، وقرب تناوله
تسييلاً لأخذ الأحكام من مصادرها ورد الفروع إلى أصولها .

كما أحيا آداب البحث والمناظرة فوضع منهجه وألف مقرره
فكان خدمة للعقيدة فى أسلوب بيانها ، وكيفية إثباتها والدفاع عنها
وطرق الإقناع بما فيه الخلاف .

كما فتح أبواباً جديدة وأحدث فنونا طريفة فى علوم القرآن .
من منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز ، إثباتاً لمعانى آيات الصفات
على حقيقتها وسد باب تعطيلها عن دلالتها إجراء للنص على حقيقته
 وإبقاء عليه فى دلالاته .

ومن دفع إيهام الاضطراب عن آى الكتاب وبيان تصديق آى الكتاب بعضه بعضاً بدون تعارض ولا إشكال .

ومن تسليط أضواء البيان على تفسير القرآن بالقرآن رسم فيه المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم . تفسير كلام الله بعضه ببعض ، وأبان أحكامه وحكمه وفتح كنوزه وأطلع نفائسه ونشر درره على طلبه العلم .

وكل ذلك فتح جديد فى علوم القرآن لم تكن موجودة على هذا النسق من قبل ، ولم تكن تدرس بهذا المثل .

كما أنه فى غرضونها صحح مفاهيم مختلفة منها أن المنطق لم يكن يُعرف عنه إلا أنه تقديم العقل على النقل ومصادمة النص بالرأى ، وكان فعلاً وسيلة التشكيك فى العقيدة باستخدام قضايا عقيمة . فهذب الشيخ رحمه الله من أبحاثه وأحسن استخدامه فنظم قضاياها المنتجة ورتب أشكاله السليمة واستخدم قياسه فى الإلزام . سواء فى العقيدة أو أصول الأحكام ، وبعد أن كان يستخدم ضدها أصبح يعمل فى خدمتها . كما وضع ذلك فى آداب البحث والمناظرة .

مواقفه مع الحق : كان رحمه الله قوياً صلباً ليناً سهلاً .

كان قوياً صلواً في بيانه، ليناً سهلاً في الرجوع إلى ما ظهر إليه منه .

في بعض الأعوام التي حججتها معه رحمه الله قدمنا مكة يوم سابع من الشهر، وكان مفرداً بالحج وفي يوم العيد صحبته للسلام على سماحة المفتي رحمه الله بنى، فسأله رحمه الله عن نسكه فقال: جئت مفرداً بالحج وقصداً فعلت فأدرك المفتي رحمه الله أن وراء ذلك شيئاً ولكن تطف مع الشيخ وقال: أهو أفضل عندك حفظك الله؟ فأجاب أيضاً حفظكم الله لا للأفضلية فعلت، ولكن سمعت وتأكد عندي أن أشخاصاً ينتمون لطلاب العلم يقولون لا يصح الأفراد بالحج ويلزمون المفردين بالتحلل بعمره . وهذا العمل لا يتناسب مع العديد من وفود بيت الله الحرام كل بما اختار من نسك وكل يعمل بمذهب صحيح، وجرت محادثة من أنفس ما سمعت في تقرير هذا البحث من مناقشة الأدلة وبيان الراجح . وأخيراً قال رحمه الله: إنه لا يعني بيان الأفضل فهذا أمر مختلف فيه وكل يختار ما يرجح عنده . ولكن يعني إبطال القول بالمنع من صحة أفراد الحج لأنه قول لم يسبق إليه . والأمة مجمعة على صحته . فما كان من سماحة المفتي رحمه الله إلا أن استحسن قوله ودعا له .

ولكن أنى بهذا العمل من الشيخ رحمه الله الذى أراد به البيان عملياً صورة مما وقع من على رضى الله عنه حينما بلغه عن عثمان رضى الله عنه أنه ينهى عن التمتع فدخل عليه وقال : كيف تنهى عن شئ فعلناه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج من عنده وهو يقول : لبيك اللهم حجاً وعمرة .

أما لينة مع الحق ورجوعه إلى ما ظهر له منه ، ففي آخر دروسه في الحرم النبوى في رمضان الماضى فى سورة براءة أعلن عن رجوعه عن القول فى الأشهر الحرم بأنها منسوخة . وقال : الذى يظهر أنها محكمة وليست منسوخة . وكنا نقول بنسخها فى دفع إيهام الاضطراب ، ولكن ظهر لنا بالتأمل أنها محكمة . وهو الحق الذى ينبغى اعتاده والتعويل عليه .

ومما وقع لى معه رحمه الله وأكبرته فيه تواضعه وإنصافه سمعت منه فى مبحث زكاة الحلى فى أضواء البيان عند سرد الأدلة ومناقشتها ، أن من أدلة الموجبين حديث المرأة اليمينية ومعها ابنتها وفى يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب ، فسألها صلى الله عليه وسلم « أتؤدين زكاة هذا ؟ فقالت : لا . فقال : هما حسبك من النار . فخطبتهما وألقت بهما » .

وأجاب المانعون بأن ذلك كان قبل إباحة الذهب للنساء ،
ففسألت مستوضحاً منه رحمه الله : وماذا يسمى هذا منه صلى الله
عليه وسلم سكوته عن لبسه وهو محرم وسؤاله عن زكاته ، فقال :
عجبا إن هذا يتضمن وجود اللبس عند السؤال ، ويدل على إباحته
آنذاك ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يقر أحداً على محرم ولا يتأني أن
يسكت على لبسها إياه وهو ممنوع ، ويهتم لزكاته ولو أعيد طبع
الكتاب لنهت عليه رغم أن جميع المراجع لم تلتفت إليه ، فهو بهذا
يلقن طلبة العلم درساً في موقفه من الحق ، ولسكأني بكلام عمر رضى الله
عنه في كتابه لأبي موسى رحمه الله : ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ،
ثم راجعت فيه نفسك وظهر لك الحق ، أن تأخذ به ، فالحق أحق أن
يتبع . وقد رأينا من قبل للشافعي القديم والجديد . وهذا ما يقتضيه
إنصاف العلماء وأمانة العلم .

هذا ما وسعني ذكره عن حياته العلمية في نشأته وتعلمه وتعليمه ،
وعن تراثه العلمي في مؤلفاته وآثاره التربوية في أبنائه ، وأبناء العالم
الإسلامي كله ، رحمه الله رحمة واسعة .

ولعل من أبنائه الحضور أو غيرهم من لديه المزيد على ذلك .

أما الناحية الشخصية : في تقويمه الشخصى لسلوكه ، وأخلاقه ،
 وآدابه ، وكرمه ، وعفته ، وزهده وترفع نفسه وما إلى ذلك .
 فهذا ما يستحق أن يفرد بمحدث ، وإنى لا أستطيع الآن تصويره
 ولا يسعنى فى هذا الوقت تفصيله . وما كان رحمه الله يحب أن
 يذكر عنه شئ فى ذلك ولكن على سبيل الاجمال لو أن للفضائل
 والمكرمات والشيم وصفات الكمال فى الرجال عنوان يجمعها :
 لكان هو أحق به .

وإذا كان علماء الأخلاق يعنونون لأصول الأخلاق والفضائل
 بالمرءة فإن المرءة كانت شعاره ودثاره . وكانت هى التى تحكمه
 فى جميع تصرفاته سواء فى نفسه أو مع إخوانه وطلابه أو مع غيرهم
 من عرفهم أو لم يعرفهم . وقد قال فيه بعض الناس فى حياته : إنه
 لا عيب فيه سوى عيب واحد ، هو أننا نفقده بعد موته .

وإن تفصيل ذلك لمترك لمن خالطه عن قرب . وقد استعصى
 على المقال فى ذلك ولكأنى بقول القائل :

أهابك إجلالا وما بك سلطة

على ولكن ملء عين حبيبها

ولكن قد تكفى الإشارة إذا لم تسعف العبارة . وأقرب شيء .
 زهده في الدنيا وعفته عما في أيدي الناس ، وكرمه بما في يده : لأن
 هذا لا يعلم إلا لمن خالطه ، وليس كل من خالطه يعرف ذلك منه بل
 من داخله ولازمه .

والواقع أن الدنيا لم تكن تساوى عنده شيئاً فلم يكن يهتم لها .
 ومنذ وجوده في المملكة وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب
 عطاء ولا مرتباً ولا ترفيحاً لمرتبته ولا حصولاً على مكافأة أو علاوة .
 ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه ، وما حصل عليه لم يكن
 ليستبقيه بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين ، وكنت
 أتولى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كل من مكة والمدينة .
 ومات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً ، وكان مستغنياً بعفته وقناعته . بل
 إن حقه الخاص ليتركه تعففاً عنه كما فعل في مؤلفاته وهي فريدة في
 نوعها ، لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم .

وسمته يقول : لقد جئت معي من البلاد بكنز عظيم يكفيني
 مدى الحياة وأخشى عليه الضياع . فقلت له : وما هو ؟ قال : القناعة .
 وكان شعاره في ذلك قول الشاعر :

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثر حسرتي ووساوسى

وكان اهتمامه بالعلم وبالعلم وحده وكل العلوم عنده آله ووسيلة،
وعلم الكتاب وحده غاية . وكان كثيراً ما يتمثل بأبيات الأديب
محمد بن حنبل الحسن الشافعي رحمه الله في قوله :

لا تسوء بالعلم ظناً يا فتى	إن سوء الظن بالعلم عطب
لا يزهدك أحد في العلم أن	غمر الجهال أرباب الأدب
إن تر العالم نضوا مرملاً	صفر كف لم يساعده سبب
وترى الجاهل قد حاز الغنى	محرز المأمول من كل أرب
قد تجوع الأسد في أجامها	والذئب الغبش تعتام القتب
جرع النفس على تحصيله	مضض المرين ذل وسغب
لا يهاب الشوك قطاف الجنى	وإبار النحل مشتار الضرب

حقاً إنه لم يسئ بالعلم ظناً ، ولم يهب في تحصيله شوك النحل
ولا إبار النحل ، فقال منه ما أراد واقتحم الحمى على عذارى المعاني ،
وأباح حريمها جبراً عليها وما كان الحريم بمستباح .

أما مكارم أخلاقه ومراعاة شعور جلسائه ، فهذا فوق حد
الاستطاعة ، فذ صحبته لم أسمع منه مقالا لآى إنسان ولو غطى عليه يكون
فيه جرح لشعوره ، وما كان يعاتب إنساناً فى شىء يمكن تداركه ،

وكان كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسه، وحينما كنت أسأله في ذلك يقول :

ليس الغبي بسيد في قومه ولا مكن سيد القوم المتغابي

ولم يكن يغتاب أحداً أو يسمح بغيبة أحد في مجلسه ، وكثيراً ما يقول لإخوانه (اتكاسوا) أى من الكياسة والتحفظ من خطر الغيبة ويقول إذا كان الإنسان يعلم أن كل ما يتكلم به يأتى في صحيفته ، فلا يأتى فيها إلا الشيء الطيب .

ومما لوحظ عليه في سنواته الأخيرة تباعده عن الفتيا ، وإذا اضطر يقول : لا أتحمل في ذمتى شيئاً ، العلماء يقولون : كذا وكذا

وسأله مرة عن ذلك ، فقال : إن الإنسان في عافية مالم يُبتلى والسؤال ابتلاء ، لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا . فما لم يكن عليه نص قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب التحفظ فيه .

ويتمثل بقول الشاعر :

إذا ما قتلت الشيء علماً فقل به ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله

فمن كان يهوى أن يرى متصدرًا ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

وفي الجملة ، فقد كان رحمه الله خير قدوة وأحسنها في جميع مجالات الحياة : فكان العالم العامل ولا أزكى على الله أحداً ، وقد خلف ولدين فاضلين أديبين يدرسان بكلية الشريعة الإسلامية جعلهما الله خير خلف لخير سلف ، والله أسأل أن يسكنه فسيح جنته ويوسع له في رضوان رحمته وأن يعلى منزلته ويرفع رتبته مع العلماء والصدّيقين والشهداء ، وحَسُنَ أولئك رفيقًا .

ونفعنا الله بعلومه وسلك بنا طريقة عمله بما يرضيه تبارك وتعالى عنا ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...